ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459

المجلد:10، العدد: 02 (2025) ص : 70- 83

تمثلات خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد العربي: جابر عصفور أنموذجا

Representations of Postcolonial Discourse in Arab Literary Criticism: Jaber Asfour as a Model

ط/د عبد الناصر سعيدي*
جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي (الجزائر)
s.abdealaziz@gmail.com

أ/د باديس فوغالي
جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي (الجزائر)
Badis_f2003@yahoo.fr

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2025/10/15
تاريخ القبول:
2025/12/15
تاريخ النشر:
2025/12/21

الكلمات المفتاحية:
- ✓ **ما بعد الكولونيالية**
- ✓ **النقد العربي**
- ✓ **جابر عصفور**
- ✓ **عالمية الأدب**
- ✓ **اللغة**

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة تمثلات خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد العربي من خلال تجربة الناقد جابر عصفور، بوصفه أحد أبرز الأصوات التي تفاعلت مع هذا الخطاب في العقود الأخيرة. وتنطلق الإشكالية من التساؤل حول مدى استيعاب عصفور لمفاهيم ما بعد الكولونيالية، وكيف وظفها في مقاربة الكثير من القضايا التي هي من صلب اهتمام خطاب ما بعد الكولونيالية كقضيتي، عالمية الأدب، وإشكالية اللغة. وقد اعتمد هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي، وذلك عبر وصف مفاهيم مابعد الكولونيالية وتحليل طريقة تمثلها. وتشير النتائج إلى أن عصفور قد استفاد من مفاهيم هذا الخطاب في معالجة قضايا كانت ولازالت محل اهتمام الساحة النقدية العربية، مما يعمق فهمنا للذات ، ويفكك التراتب التقليدي بين المركز والهوامش.

Article info

Received
15/ 10/2025
Accepted
15/12/2025
Published
21/ 12/ 2025

Keywords:
- ✓ *Jaber asfour*
- ✓ *discourse*
- ✓ *Postcolonial literature*
- ✓ *Criticism*
- ✓ *language*

Abstract :

This This study aims to examine the representations of postcolonial discourse in Arab literary criticism through the critical project of Jaber Asfour, as one of the most prominent voices that have engaged with this discourse over recent decades. The research problem is grounded in questioning the extent to which Asfour has assimilated postcolonial concepts, and how he has mobilized them in addressing a range of issues central to postcolonial discourse, notably the question of the universality of literature and the problematics of language. The study adopts a descriptive-analytical approach by delineating the key concepts of postcolonialism and analyzing the modes of their articulation and representation. The findings indicate that Asfour has drawn on the conceptual framework of postcolonial discourse to address issues that have long been—and continue to be—at the core of Arab critical debates. This engagement contributes to a deeper understanding of the self and to the deconstruction of the traditional hierarchical binary between center and margins.

* عبد الناصر سعيدي s.abdealaziz@gmail.com

1. مقدمة

يحاول أي استعمار أن يفرض منطقه على الشعوب المستعمرة، ويعمل جاهدا لأن يطمس هويتها ويزيف ثقافتها ويسفه حضارتها، ويبعث في خلدها روح الدونية والتبعية والانهزام، ويتخذ في سبيل ذلك شتى الوسائل والطرق من أجل بسط هيمنته الاستعمارية، بواسطة خطاب مراوغ ومزيف، تبقى تبعاته وأثاره حتى بعد نيل الشعوب لحريتها وانعتاقها من ربقة المستعمر، ولتجد الهيمنة الإمبريالية الطريق ممهدا لفرض سطوتها وبسط نفوذها على الشعوب التي عانت من نير الاستعمار العسكري، في مختلف النواحي والأصعدة، السياسية منها والاقتصادية والاجتماعية والثقافية بمكوناتها المتعددة من فن وأدب وغير ذلك. ومن هنا تأتي دراسات ما بعد الاستعمار لتنقض أسس ومبادئ الخطاب الكولونيالي(الاستعماري) و لِتُعمل الحفر والتنقيب في مستوياته المتعددة كاشفة عن أساليبه وطرقه الملتوية ومخايلاتها وآليات اشتغاله، التي أراد من خلالها ترسيخ قيمه ومفاهيمه وتصوراته. ولم يكن الوطن العربي ببعيد عن هذه المجريات بما أنه جزء من العالم الثالث الذي عان من ويلات الاستعمار والهيمنة الإمبريالية، فانبرى عدد من أبنائه الذين عاشوا في العالم الأول يضعون أسس وقواعد خطاب ما بعد الاستعمار، و الذين يأتي في طليعتهم الناقد الفلسطيني **إدوارد سعيد**. إلى جانب نقاد من أبناء العالم الثالث من أمثال **هومي بابا وغاياتري سبيفاك**. للتتلقى الساحة النقدية العربية هذا النوع من الخطاب وتتفاعل معه عبر العديد من النقاد والذين من أهمهم الناقد **جابر عصفور** الذي أبدى اهتماما كبيرا بدراسات ما بعد الاستعمار وهذا ما تجلى في العديد من دراساته ومقالاته.

فما مفهوم خطاب مابعد الاستعمار؟ ومن هم رواده؟ وكيف تلقته الساحة النقدية العربية ؟ وكيف تفاعل معه **جابر عصفور** على المستويين النظري والتطبيقي؟

2- مابعد الكولونيالية:

2-1 مصطلح مابعد الكولونيالية:

تشير السابقة (ما بعد) في مصطلح ما بعد الكولونيالية، الكثير من النقاش والجدل، إذ طرحت إشكالا فيما إذا كان المقصود منها التعاقب الزمني، أم هناك معنى آخر إيديولوجي ضدي إحلالي، وهذا ما يطرحه **آنيا لومبا** حين يقول: " فالبادئة (بعد) تعقد الأمور لأنها تفترض (نتيجة) بمعنيين: الزمني كالقدوم فيما بعد، و ايديولوجي كحلول شخص أو شيء محل آخر (كالاستئصال). إن المعنى الثاني هو الذي وجده نقاد المصطلح مثيرا للجدل: فإذا ما كانت أشكال جور الحكم الاستعماري لم تمحى بعد فربما يكون من السابق لأوانه إعلان زوال الاستعمار."(لومبا، 2007. ص:22).

ولذا فإنه يقترح للخروج من هذا الإشكال " أنه من الأجدى لنا أن نفكر بما بعد الاستعمار ليس على أنه حرفيا تاليا للاستعمار ودالا على زواله، بل بمرونة أكبر على أنه الطعن بالسيطرة الاستعمارية وتركات الاستعمار." (لومبا، 2007. ص:27).

2-2 دراسات مابعد الاستعمار(مابعد الكولونيالية):

تعددت التعريفات لدراسات ما بعد الاستعمار وتوسع فيها النقاش، بناء على الفترة التي تغطيها، وقد أجملها **دوغلاس روبنسون** في كتابه الترجمة والإمبراطورية في ثلاثة تعريفات."

(1) دراسة مستعمرات أوروبا السابقة منذ استقلالها: أي الكيفية التي استجابت بها لإرث الكونوليالية الثقافي، أو تكيفت معه، أو قاومته، أو تغلبت عليه خلال الاستقلال. وهنا تشير الصفة (ما بعد الكولونيالية) إلى ثقافات ما بعد نهاية الكولونيالية. التي تغطيها هي تقريبا النصف الثاني من القرن العشرين.

(2) دراسة مستعمرات أوروبا السابقة منذ استعمارها: أي الكيفية التي استجابت بها لإرث الكولونيالية الثقافي، أو تكيفت معه، أو قاومته، أو تغلبت عليه منذ بداية الكولونيالية. وهنا تشير الصفة(ما بعد الكولونيالية) إلى ثقافات ما بعد بداية الكولونيالية. والفترة التاريخية التي تغطيها هي تقريبا الفترة الحديثة، بدءا من القرن السادس عشر.

(3) دراسة جميع الثقافات/ المجتمعات/ البلدان/ الأمم، من حيث علاقات القوة التي تربطها بسواها من الثقافات/ المجتمعات، البلدان/ الأمم، أي الكيفية التي أخضعت بها الثقافات الفاتحة الثقافات المفتوحة لمشيئتها، والكيفية التي استجابت بها الثقافات المفتوحة لذلك القسر، أو تكيفت معه، أو قاومته، أو تغلبت عليه، وهنا تشير الصفة (ما بعد الكولونيالية) إلى نظرتنا في أواخر القرن 20 إلى علاقات القوة السياسية والثقافية. أما الفترة التاريخية التي تغطيها فهي التاريخ كله."(روبنسون، 2005. ص:82).

ومن خلال التعريفات السابقة نخلص إلى ما يلي: أن التعريف الأول يتعلق بفترة ما بعد الاستقلال من الاستعمار الأوروبي، أما التعريف الثاني فيغطي مرحلة الاستعمار الأوروبي الفعلي وما بعدها، والتعريف الثالث وهو التعريف الأشمل و يتعلق بعلاقات القوة بين القوى المتسلطة والقوى المستضعفة عبر التاريخ كله.

وهذا كله يصب في محاولة الكشف عن الممارسات الكولونيالية والامبريالية التي حاول المستعمر من خلالها أن يسلب الشعوب التي عانت من ويلاته إرادتها ووعيها بذاتها وتقرير مصيرها، فكان أن وجد خطابا نقيضا، ينقض أسسه ويفضح تحيزاته ويقاوم تخييلاته ورؤاه الزائفة، ولم يكن هذا الخطاب إلا خطاب ما بعد الاستعمار الذي سعى إلى أن يميط اللثام عن حقيقة قوى الاستعمار والإمبريالية. وأفعالها الشائنة في حق الشعوب المضطهدة.

3–روادها :

لقد كان لدراسات ما بعد الاستعمار بوادر تأسيسية، مهدت الطريق لظهورها، ومن ثم اصطباغها بالصبغة الأكاديمية، إلا أن التأسيس الفعلي والجهد الأكاديمي، كان على يدي الأقطاب الثلاث لدراسات ما بعد الكولونيالية، **إدوارد سعيد، وهومي بابا، وغاياتري سبيفاك**، وهذا ما دعانا إلى الاقتصار عليهم وذكر أهم أعمالهم.

3–1–إدوارد سعيد:

إدوارد سعيد منظر وناقد فلسطيني– أمريكي ولد في القدس سنه 1935، وارتحل إلى الولايات المتحدة الأمريكية للدراسة هناك ومن ثم التدريس في جامعاتها العريقة، وتوفي في سنة 2003. ويعد **سعيد** من أهم مثقفي العرب في القرن العشرين الذين ذاع صيتهم في أنحاء العالم، وهذا لأعماله وأنشطته الأكاديمية والإنسانية، ويعد كتابه (الاستشراق) كتابا تأسيسيا في حقل الدراسات الثقافية ودراسات ما بعد الاستعمار، حيث يبين فيه مدى ارتباط الدراسات الاستشراقية بالهيمنة الإمبريالية الغربية، إذ شكلت هذه الدراسات وسيلة حاول من خلالها المجتمع الغربي أن يشكل صورة مشوهة عن المجتمع الشرقي ويسمه بشتى أوصاف الدونية والعجز وعدم التحضر.

وقد وضع **إدوارد سعيد** عدة تعريفات للاستشراق حيث يقول **إدوارد سعيد** أن الاستشراق في أيسر تعريفاته:" مبحث أكاديمي، بل إن هذا المفهوم لا يزال مستخدما في عدد من المؤسسات الأكاديمية، فالمستشرق كل من يعمل بالتدريس أو الكتابة أو إجراء لبحوث في موضوعات خاصة بالشرق، سواء كان ذلك في مجال الأنثروبولوجيا أي علم الإنسان، أو علم الاجتماع، أو التاريخ، أو فقه اللغة، وسواء كان ذلك يتصل بجوانب الشرق العامة أو الخاصة، والاستشراق إذن وصف لهذا العمل."(سعيد، 2006.ص:44).

فالاستشراق بهذه الصورة هو وصف للعمل الأكاديمي الذي يقوم به المدرس أو الكاتب أو الباحث في شؤون الشرق ، ويشمل العديد من الاختصاصات، بغية التعرف عليه عن كثب والكشف عن أبعاده التاريخية والثقافية والاجتماعية وغير ذلك.

هناك تعريف أو معنى أعم وأشمل كما يقول **إدوارد سعيد** للاستشراق فهو" أسلوب تفكير يقوم على التمييز الوجودي والمعرفي بينما يسمى(الشرق) وبين ما يسمى(في معظم الأحيان) (الغرب)، وهكذا فإن عددا بالغ الكثرة من الكتاب- من بينهم شعراء، وروائيون، وفلاسفة، وأصحاب نظريات سياسية، واقتصاديون، ومديرون إمبرياليون- قد قبلوا التمييز الأساسي بين الشرق والغرب باعتباره نقطة انطلاق لوضع نظريات مفصلة، وإنشاء ملاحم، وكتابة روايات، وأوصاف اجتماعية ودراسات سياسية عن الشرق، وعن أهله وعاداته، وعن عقله، ومصيره، وهلم جرا "(سعيد، 2006.ص:45).

وهذا التعريف يحيلنا إلى الفصل مابين الشرق والغرب باعتبارهما كيانين متمايزين، ليكون الشرق مسرحا للدراسات السياسية و الاقتصادية والفلسفية، والكتابات الأدبية، وذلك بالبحث عن الصورة المعاكسة لما يتمتع به الغرب من عقلانية وتقدم وحضارة يعوزها الشرق المتخلف، حسب رؤية المستعمر.

والمعنى الثالث للاستشراق كما يرى **إدوارد سعيد**" وهو معنى يستند في تعريفه إلى عناصر تاريخية ومادية أكثر مما يستند المعنيان الآخران. فإذا اعتبرنا أواخر القرن 18 نقطة انطلاق عامة إلى حد بعيد، استطعنا أن نناقش ونحلل الاستشراق بصفته المؤسسة الجماعية للتعامل مع الشرق- والتعامل معه معناه التحدث عنه، واعتماد أراء معينة عنه، ووصفه، وتدريسه للطلاب، وتسوية الأوضاع فيه، والسيطرة عليه: وباختصار بصفة الاستشراق أسلوبا غربيا للهيمنة على الشرق وإعادة بنائه والتسلط عليه." (سعيد، 2006.ص:45-46).

في هذا التعريف تتضح الصورة جلية حول الغاية من الاستشراق، فهو عمل واع وممنهج وعملي، بغية الهيمنة على الشرق وإخضاعه لإرادة و رؤى وأفكار الغرب، ومن ثم السيطرة عليه سياسيا واقتصاديا وثقافيا إلخ..، ووسيلته في ذلك الذراع المعرفية التي تستند إليها القوى المتسلطة.

ومن هنا فإن باب الاستشراق الذي فتحه **إدوارد سعيد** يعد مدخلا رئيسا لدراسات ما بعد الاستعمار، باعتباره خطابا نقضيا للخطاب الكولونيالي، وذلك بالكشف عن أساليبه المراوغة ورؤاه المزيفة، التي حاول من خلالها بسط هيمنته، وتشكيل صورة شائهة عن الشرق، تربط مصيره بالغرب الذي يدعي التحضر وتمثيل القيم السامية.

3-2-هومي بابا:

هومي بابا هو منظر وناقد هندي انجليزي ولد سنة 1949 هاجر إلى إنجلترا لمواصلة دراساته العليا. ثم إلى الولايات المتحدة للاشتغال بالتدريس الجامعي. ويعد **بابا** القطب الثاني بعد **إدوارد سعيد** لنظرية ما بعد الاستعمار. ورغم تأثر **هومي بابا بإدوارد سعيد** إلا أنه ينحو

منحى آخر في نظرته إلى الثنائيات التقليدية والفصل الحاد بينهما. فكما جاء في مقدمة مترجم كتاب موقع الثقافة، أن **هومي بابا** يكرس جهوده للكشف عن الموقع الثقافي الهجين والبيني، مدافعا عن وضع نظري متحرر من ثنائيات الشرق والغرب والداخل والخارج والذات والآخر والسيد والعبد، وضع يتجاوز الأسس المحددة، وينفتح على فضاء من الترجمة لا تنسب فيه الهويات إلى سمات ثقافيه محدده سلفا غير قابله للاختزال، وقائمة خارج التاريخ. فالسيد والعبد، أو المستعمر والمستعمر لا يمكن أن يفهما بحسب رؤية **بابا** على أنهما كيانان منفصلان يعرف كل منهما ذاته بشكل مستقل، وإنما هناك تفاعلا وتبادلا متواصلين تلعب فيهما الهوية الثقافية دورا في الزمن الحاضر، وفي فضاء حدي وموقع هجين، يفسح المجال للاختلاف الثقافي بالظهور والكشف عن معارف ومعان جديدة، و يسمح لبناء موضوع سياسي جديد يبتعد بنا عن توقعاتنا السياسية المعتادة، ويغير الأشكال المعهودة لمعرفتنا بلحظة السياسة.(هومي، 2006. ص11).

3-3-غاياتري سبيفاك:

غاياتري سبيفاك ناقدة وناشطة هندية من أصول بنغالية ولدت في سنه 1942، وعاشت ودرست في الهند ثم انتقلت إلى الولايات المتحدة الأمريكية لإتمام دراستها في الأدب المقارن، ومن ثم التدريس في العديد من جامعاتها، اهتمت بدراسات ما بعد الاستعمار، فكان لها أن نشرت مقالا شهيرا أثار الكثير من النقاشات و تناولته العديد من البحوث والمؤتمرات، وهو مقال يهتم بدراسة التابع، وجاء تحت عنوان هل يستطيع التابع أن يتكلم؟ ومؤدى الفكرة كما يرى **عبد الله إبراهيم**" التي تريد **سبيفاك** طرحها هو هل توفرت السياقات الثقافية المواتية للتابع لكي يتكلم؟ هل يتمكن من الحديث، وإسماع الآخرين صوته؟ فالشعوب المستعمرة سلب منها حق تمثيل نفسها. أي سلب منها حق الكلام، والكلام الوسيلة الوحيدة لتأسيس معرفه متماسكة عن التابع ووعيه ووجوده." (إبراهيم، 2005ص:01).

وتطرح **سبيفاك** مثال عن طقس ديني من الطقوس الهندوسية القديمة في الهند، وهو ما يسمى ب sati، وهو طقس تقوم فيه المرأة الأرملة بحرق نفسها مع زوجها المتوفى، كتعبير عن وفائها وشجاعتها، وهذا ما يجسد فكرة تبعية المرأة للرجل، وهيمنة الثقافة الذكورية ثم الهيمنة الأبوية لتضاف إليهما لاحقا هيمنة الثقافة الاستعمارية، لتجد المرأة نفسها محاصرة داخل دوائر مغلقة لا تستطيع الفكاك منها، فيصبح صوتها بالتالي محاصرا، فهو إذا صوت صامت ومحكوم بالفشل، لأن هيمنة المتبوعين تحول دون وصوله، والحل كما ترى **سبيفاك** هو باستعادة صوت التابع، عن طريق صوت المثقف الصادر من صلب الجماعة ليحل محله في التعبير، إلا أن هذا يمثل أيضا إشكالية بحيث يعيدنا إلى مسالة التمثيل التي طرحها ماركس، وهي عدم قدرة الشرقيين على تمثيل أنفسهم. (إبراهيم، 2005.ص:01).

4-التلقي العربي لخطاب ما بعد الكولونيالية

لقي خطاب ما بعد الكولونيالية اهتماما لافتا في الأوساط النقدية والأدبية العربية، ولعل ذلك يعود إلى أن هذا الخطاب يلامس الوجدان والوعي الجمعي العربي، بحكم أنه يعالج قضيه عان منها ولا يزال الوطن العربي، ألا وهي قضية الاستعمار والهيمنة الإمبريالية، ومن هنا وجد النقاد العرب ضالتهم في من بإمكانه أن يجيب عن تساؤلاتهم حول طبيعة الاستعمار والآليات والاستراتيجيات التي اعتمدها لبسط هيمنته ونفوذه على امتداد الوطن العربي الذي لا يزال جزء عزيز منه يعاني من ويلات الاحتلال الاستيطاني الصهيوني. ومن هنا فقد اشتغل العديد من النقاد والمفكرين العرب على التعريف بهذا الخطاب وتبيان مضامينه وشرح مقولاته، ومن ثم استثماره في

عدد من الممارسات التطبيقية. ومع هذه الجهود فإن حضور هذا الخطاب في الساحة النقدية العربية لازال دون المأمول، وهذا ما أشار إليه **إدوارد سعيد** في كتابه (السلطة والسياسة والثقافة) (سعيد، 2008.ص:474).

لا شك أن كتابات **إدوارد سعيد** مثالا جليا على الإسهام العربي المعاصر في الساحة النقدية العالمية، خصوصا مع كتابه (الاستشراق) الذي كان مدخلا رئيسا لدراسات ما بعد الكولونيالية. إلى جانب كتبه المتتالية (تغطية الإسلام) و(الثقافة و الإمبريالية) وغيرها. وقد شغل **سعيد** حيزا كبيرا من اهتمامات النقاد والمفكرين العرب باعتبار أصله العربي ولتبوئه لمكانة رفيعة في المشهد النقدي العالمي، ومن دلالات ذلك الترجمة التي قام بها **كمال أبو ديب** لكتابه (الاستشراق) سنة 1981، ثم تلتها ترجمة ثانية **لمحمد عناني** سنة2006، إضافة إلى ترجمة العديد من كتبه ، وما كتب عنه من قبل العديد من النقاد والمفكرين العرب من أمثال **جابر عصفور** و**سعد البازعي** و**عبد اله العروي** وغيرهم.

وتعد الترجمة أيضا وسيلة هامة في التعريف بخطاب ما بعد الاستعمار وتبيان مضامينه وأفكاره. من ذلك ما قام به **ثائر ديب** حين ترجم كتاب(موقع الثقافة) ل **لهومي.ك. بابا**، وقد قدم له بترجمة رصينة كانت كاشفة وموضحة لأفكاره. (هومي، 2006.ص09-36).

وكذا ترجمته لكتاب (الترجمة والإمبراطورية: نظرية الترجمة ما بعد الكولونيالية) ل **دوغلاس روبنسون**، عن المجلس الأعلى للثقافة في مصر، و قدم له أيضا بمقدمة وافية عن الدراسات ما بعد الكالونيالية وعلاقتها بالترجمة. (روبنسون، 2005.ص:07-16).

كما ترجم **خالد حافظي** كتاب هل يستطيع التابع أن يتكلم؟ ل **غاياتري سبيفاك**، وقد وضع في مقدمته للترجمة شرحا للجهد الذي قام به في تتبع تحديثات هذا الكتاب من طرف المؤلفة نفسها، والجهد المضني في تتبع مراجعها المتشعبة، والمعاناة المصاحبة لفهم فكرها الراقي وأسلوبها المكثف. (سبيفاك، 2020.ص:05-11).

إذا ما انتقلنا إلى الجهد التنظيري لنظرية ما بعد الاستعمار في الوطن العربي فان" من الدراسات الهامة التي عالجت خطاب ما بعد الكولونيالية، وشكلت تنظيرا زمنيا متقدما من حيث مقاربة عملية التأسيس والتبلور للخطاب في النقد العالمي، دراسة **صبحي حديدي** المنشورة في مجلة الكرمل الفلسطينية بعنوان(الخطاب ما بعد الكولونيالي في الأدب و النظرية النقدية)."(أبو شهاب، 2013. ص: 140).

أما عن المداخل التي اعتمدها النقد العربي في التنظير لخطاب ما بعد الكولونيالية، فإنه يستوقفنا ما جاء في (دليل الناقد) **لميجان الرويلي** و**سعد البازعي**، إذ يتناولان مصطلحي الخطاب الاستعماري والنظرية ما بعد الاستعمارية ويفصلان بينهما في التعريف، فالأول يعبر عن مرحله الاستعمار التي انقضت وانتهت، والثاني يعبر عن مرحلة ما بعد الاستقلال والهيمنة الإمبريالية التي حلت محل الاستعمار، والتي تتطلب نوعا خاصا من التحليل.(الرويلي والبازعي، 2002. ص158).

في حين أن **نبيل راغب** في موسوعته(موسوعة النظريات الأدبية) يرى" أن نظرية ما بعد الكولونيالية لا تعني مجرده تسلسل زمني أحادي الاتجاه، أي انتهاء عصر الكولونيالية ليحل محله عصر آخر في أعقابه، وإنما هناك اشتباك جدلي وفكري وثقافي وحضاري ومادي واجتماعي بين الكولونيالية وما بعدها."(راغب، 2003. ص548).

أما في المجال التطبيقي فتتبدى لنا مجموعة من الجهود ضمن استدعاء الآخر، و من بين هذه الجهود" كتاب **صلاح قنصوه**(تمارين في النقد الثقافي)، نجد العناية بالآخر، وخطابه من أكثر الاستراتيجيات التي يلجأ إليها الباحث، فهو يعمل على كسر وهدم أسطورة الآخر التي استخدمها المستعمر"(أبو شهاب، 2023. ص: 226).

وعن مسائلة السرديات والمرويات الغربية، يرى **رامي أبو شهاب** أنه من خلال كتاب (المركزية الغربية إشكالية التكون والتمركز حول الذات) **لعبد الله إبراهيم** " يتبدى لنا بوضوح أن **عبد الله ابراهيم** ينطلق من استراتيجية واضحة، فضلا عن وضعه جهد نقدي، يقوم على تفكيك المركزيات، ومسائلة السرديات والمرويات التي عملت بدورها على تعميق هذا الحضور المركزي لبعض الثقافات." (أبو شهاب، 2023. ص: 226).

ومن الجهود المميزة التي اعتنت بالتعريف بنظرية ما بعد الكولونيالية وتلقيها في الوطن العربي، جهد **رامي أبو شهاب** في كتاب(الرسيس والمخاتلة: خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد العربي المعاصر، النظرية والتطبيق). الذي بسط القول فيه، معرفا بنظرية ما بعد الكولونيالية، وتلقي النقد العربي لها على المستويين التنظيري والتطبيقي، متتبعا الكثير من أعمال النقاد الذين اشتغلوا على بيان هذه النظرية وتجسيدها في العديد من الممارسات التطبيقية. (أبو شهاب، 2023. ص: 226).

وهكذا تتوالى الجهود في تناول نظرية ما بعد الاستعمار مع **رضوى عاشور**، و **فخري صالح**، و **سعد البازعي** و **يحي بن الوليد**، و **خيري دومة**، و **حفناوي بعلي** وغيرهم

5-جابر عصفور والنظرية ما بعد الكولونيالية:

انشغل جابر عصفور بنظرية ما بعد الكولونيالية، وأولاها اهتماما كبيرا على المستويين النظري والتطبيقي، معرفا بها وبروادها وفي مقدمتهم المنظر والناقد الفلسطيني- الأمريكي إدوارد سعيد، محاولا مقاربة القضايا التي حضيت باهتمامها، كقضية الهوية الثقافية، وقضية اللغة، و قضية عالمية الأدب، وغيرها من القضايا.

5-1-المستوى النظري:

يتتبع **جابر عصفور** أولا على المستوى التنظيري دلالات مصطلح نظرية مابعد الكولونيالية، حيث تثير السابقة (ما بعد) الكثير من الجدل في مصطلح ما بعد الكولونيالية، فهل هي ذات دلالة زمنية تفصل مابين فترة الاستعمار وفترة ما بعد الاستقلال فقط؟ أم أن دلالتها إلى جانب ذلك نقضية تشمل الفكر الاستعماري بشكل عام في الفترتين معا؟ ويجيب **جابر عصفور** على ذلك قائلا: "العلاقة وثيقة جدا بين تفكيك ممارسة (الناقد الكولونيالي) وتفكيك (الخطاب الكولونيالي) بوجه عام، خاصة في المجال الذي أصبح يطلق عليه اصطلاحا (خطاب ما بعد الكولونيالية)Post- colonial discourse وهو مجال تعني فيه كلمه (ما بعد)(Post) التعاقب الزمني والنقض الفكري على السواء."(عصفور، 2010. ص:421-422).

وبهذا فإن **جابر عصفور** يرى أن السابقة (ما بعد) تؤدي الدلالتين الزمنية والفكرية معا، وهذا ما يجد له سندا في القاموس الإنجليزي حيث يقول " فكلمة ما بعد في استخدامها الانجليزي، مثلا تعني التعاقب والضدية معا في هذا المجال المعرفي.(ولذلك فان كلمه(post)

تؤدي، في هذا السياق الاصطلاحي، معنى(after,against) على السواء، حيث يحتويهما الاصطلاح(Post colonial dascourse) الذي نصفه، عادة بأنه (خطاب ما بعد الاستعمار)" (عصفور، 2010. ص: 98).

فما المفهوم الذي تحمله هذه السابقة داخل إطارها الاصطلاحي؟ يرى **جابر عصفور** أن هذا المفهوم يتعلق بالكشف عن آليات اشتغال الخطاب الكولونيالي، وهي آليات مخاتلة تسعى إلى بسط هيمنة هذا الخطاب، التي تقضي بالوصل بين التبعية السياسية و الاتباع الفكري، والتي لا تزال تمارس نفوذها داخل المستعمرات السابقة، التي لازالت تعاني جزئيا أو كليا من الهيمنة الإمبريالية(عصفور، 2010. ص421-422).

ويرى **جابر عصفور** أنه علينا أن نعي أن السابقة- ما بعد- تشير إلى ما هو معارض أو نقيض للخطاب الكولونيالي، فخطاب ما بعد الاستعمار يهدف إلى إزالة الحجب عن الأفكار والقيم التي حاول المستعمر أن يغرسها في اللاوعي الجمعي للشعوب التي كانت تحت سطوته. وما يعنيه **جابر عصفور** باللاوعي الجمعي هو اللاوعي الذي يصدر عنه الأديب في العالم الثالث، ولا ينجلي هذا الأمر إلا من خلال تحليل النصوص وفق مقولات خطاب ما بعد الكولونيالية، وهو الخطاب الذي يكشف الآليات المراوغة، والرؤى الزائفة التي حاول المستعمر أن يدسها في اللاوعي الجمعي، وهي ما تتبدى في نصوص الأدباء في الشرق والغرب. (عصفور، 2014. ص26).

ومن هنا فإن **جابر عصفور** يبين أن اشتغال الخطاب ما بعد الكولونيالي يكون على ما هو مضمر في النصوص، من أجل الكشف عن تلك الأساليب المراوغة والمخاتلة، والمخايلات الزائفة، التي اعتمدها الخطاب الكولونيالي، من أجل ترسيخ مفاهيم التبعية والدونية لدى الشعوب المستعمرة، ومن أجل التمكين لرؤيته الاستعلائية على هاته الشعوب.

فخطاب ما بعد الاستعمار كما يرى **جابر عصفور** "هو الخطاب الذي صاغه نقاد العالم الثالث الذين عاشوا في العالم الأول، وتأثروا بنقد الفكر الكولونيالي الخاص بالاستعمار الاستيطاني وأشكاله المتقدمة التي صاغت خطابات الكولونيالية والإمبريالية العالمية." (عصفور، 2014. ص26).

ومن ثم فإن خطاب ما بعد الاستعمار هو خطاب نقضي للتوجهات الغربية الاستعمارية المواربة، التي حاولت تشكيل صورة نمطية عن العالم الذي رزخ تحت نير ممارساتها القمعية والعنصرية، والمفارقة هنا أن من صاغوا هذا الخطاب هم أبناء العالم الثالث المقيمين في العالم الأول، والذين عملوا على تفكيك الأسس التي قام عليها الخطاب الكولونيالي.

ويذهب **جابر عصفور** إلى أن من أهم أنواع الخطابات المناقضة للمركزية الأوروبية، والتي عملت على تقويض أسسها هو خطاب ما بعد الكولونيالية، الذي صاغ مقولاته بالدرجة الأولى أبناء العالم الثالث، حيث أخضعوا العالم الأول لمبدأ المساءلة وقاموا بالنقد الجذري لممارساته الاستعمارية، ورفع الستار عن تحيزاته العرقية والجنسية والدينية، والكشف عن الآليات التي اعتمدها من أجل بسط سيطرته ونفوذه على الشعوب المستعمرة، وتكريس مبدأ التبعية والخنوع. ومن هنا يرى **جابر عصفور** أن النقد الأدبي لخطاب ما بعد الكولونيالية قد تصدى لهكذا خطاب، عبر تقديم السردية المناقضة لما حاول الاستعمار أن يرسخه من سرديات ومرويات، تخدم مصالحه وتعزز نفوذه. وكان من هؤلاء الذين حملوا راية خطاب ما بعد الاستعمار كما يذكر **جابر عصفور**، **فرانز فانون** صاحب كتاب (المعذبون في الارض) و(جلد اسود وأقنعه بيضاء)، إلى جانب النيجيري **شينو أتشيبي**، والمارتينيكي **سيزير** و التونسي الأصل **ألبرت ميمي**، وغيرهم من أبناء المستعمرات الذين فتحوا باب التحرر الذي انطوى عليه خطاب ما بعد الكولونيالية، لتلتحق بهم صياغات نقاد العالم الثالث

الذين عاشوا في العالم الأول، والذين مارسوا الوعي الضدي ضد الممارسات الكولونيالية ذات البعد الأكاديمي في الدوائر الغربية، ويبرز في هذا المجال الدور الطليعي الذي قام به **إدوارد سعيد**، وخاصة في كتابه (الاستشراق) وبدرجه اقل في كتابه (الثقافة والإمبريالية). (عصفور، 1997. ص: 109-110).

ويشير **جابر عصفور** أيضا إلى الدور الطلائعي" الذي قام به **أنور عبد المالك** بعد أن ترك مصر سنه 1959، واستقر في فرنسا التي أصدر منها دراساته المتتابعة التي لفتت الأنظار إليه، بوصفه رائدا من رواد نقض الخطاب الكولونيالي، سواء في مجال نقد الاستشراق الذي بدا بمقالته الشهيرة (الاستشراق في أزمة) التي نشرها بالفرنسية في باريس سنه 1963، أو نقد المركزية الغربية وتأكيد الخصوصية، وذلك في الدراسات التي توجها كتابه(الخصوصية والنظرية الاجتماعية) الذي صدر في باريس سنه 1972." (عصفور، 2010. ص: 447).

ويرصد **جابر عصفور** تلقي خطاب ما بعد الاستعمار في الوطن العربي، ويرى أنه لقي ترحابا في المشهد العربي المعاصر، الذي كان يهدف للتخلص من التبعية، وتحرير العلوم الإنسانية والنقد الأدبي من الدوران في فلك الآخر، بما يشق الطريق أمامه للإبداع الذاتي. وهو السبيل كما يرى **جابر عصفور** الذي لا يزال يستهوي خطاب ما بعد الاستعمار من أجل الوصول إلى أشكال إبداعية جديدة انطلاقا من الأشكال التراثية، على نحو ما نجد عند **نجيب محفوظ** و **جمال الغيطاني** في فن الرواية، و **أمل دنقل** و **سعد يوسف** و **حسن الشيخ** في فن الشعر و **سعد الله ونوس** في الفن المسرحي. ليوازيهم النقاد العرب الذين لا زالوا يعملون على تقديم تشكيلة فاعلة من النقد الثقافي ودراسات ما بعد الاستعمار. وقد ازداد خطاب ما بعد الكولونيالية حضورا كما يلحظ **جابر عصفور** في المشهد العربي المعاصر، مع ترجمه العديد مما كتبه أعلامه ورواده، وشغف الشباب المثقف بترجمة أصوله النظرية، وعددا من تطبيقاته. (عصفور، 2014. ص: 15-16).

وحول وقع خطاب النقد الثقافي و دراسات ما بعد الاستعمار في المشهد الثقافي العربي يرى **جابر عصفور** أن" كلا الخطابين يجد في الثقافة العربية، في العقود الأخيرة، استجابة واسعة لأن كلا الخطابين يسهم في الخروج من الدائرة المغلقة للبنية، ويعيد للذات المزاح عن المركز دورها الفاعل، وينقض المركزية الأوروبية بما يفتح السبيل للحضور الفاعل للهوامش والأطراف، وينقض التراتب المعتاد بين القامع والمقموع، والتابع والمتبوع، والشمال والجنوب، ويقيم نوعا جديدا من الحوار متكافئ الأطراف، في مناخ واحد يحترم الهويات الثقافية، ويعترف بالتعددية والتنوع الثقافي الخلاق." (عصفور، 2014. ص: 136-137).

فكلا الخطابين يعملان على تفكيك سلطة المركز، والكشف عن مضمراته وآلياته المخايلة، التي تستبعد الهامش من دائرة صنع القرار على جميع المستويات، وبالتالي الحد من فاعليته، والانزواء به إلى دوائر التبعية والدونية والجمود. وهذا ما يسعى خطاب النقد الثقافي وخطاب ما بعد الاستعمار إلى الخلاص منه، وإرساء قواعد التنوع الثقافي الخلاق.

5-2-المستوى التطبيقي:

هناك العديد من القضايا التي عالجها **جابر عصفور** من منظور دراسات ما بعد الكولونيالية، مع خصوصية في الطرح، وفي ما يلي نموذجين عنها.

5-2-1-عالمية الأدب

تمثل الدعوة إلى عالمية الأدب من المنظور الغربي توجها يرى أن صفة العالمية ترتبط بدول بعينها، وبلغتين معينتين هما الإنجليزية والفرنسية، وبمرجعية مهيمنة هي المركزية الأوروبية – الأمريكية،. ومن هنا يرى **جابر عصفور** أن صفة العالمية تمثل إشكالا بالنسبة للناقد والأديب العربي إذ أن مجاورة هذه الصفة للأدب العربي كقولنا الأدب العربي والعالمية " صفة ملحة على وعي مؤرق بحضوره في عالم متقدم، وعي مأزوم نتيجة مكانته في هذا العالم وعلاقته به، وذلك على نحو تبدو معه صفة العالمية علامة على حضور منقوص ووجود غير مكتمل في هذا العالم، كما تبدو لهفة الاتصاف بهذه الصفة أو الانتساب إليها لهفة على دخول فضاء متقدم، وعالم أكثر هيمنة بأكثر من معنى"(عصفور، 2010. ص: 387).

إلا أن هذه الإشكالية كما يرى **جابر عصفور** ليست حاضرة عند الناقد الغربي" أن صفة العالمية عند مثل هذا الناقد في علاقته بأدبه الخاص، لا تمثل إشكالا يرتبط بحضور منقوص أو وجود غير مكتمل وإنما هي صفة من صفات القيمة الموجودة بالفعل في أدب هذا الناقد والمأخوذة مأخذ التسليم في ملازمتها هذا الأدب الذي لا يحتاج إلى أن يثبت لغيره ما هو معدود من طبيعته"(عصفور، 2010. ص: 388).

وهنا تكمن النظرة الاستعلائية للإنسان الغربي، ورغم أن **جابر عصفور** لم يصرح بذلك، إلا أننا نقف فيما سبق على أن هذا الناقد الغربي قد أقنع نفسه بأن صفة العالمية هي صفة ملازمة له ولا يمكن فهمها وتصورها بعيدا عما يعتقده، وحاول أن يقنع مقابله في العالم الثالث انه فاقدا لهذه الصفة أو القيمة، وأن وجوده منقوص وغير مكتمل، وهذا ما سعت دراسات ما بعد الاستعمار إلى نقضه وتبيان بطلانه.

يقوم مفهوم العالمية كما يرى **جابر عصفور** على مبدأ المشابهة، وهو المبدأ الذي يسعى إلى توحيد المتغايرات بطريقة جبرية، تجعل منها صورا متكررة للمركز بصفته المرجع والمآل. (عصفور، 2010. ص: 41).

فمبدأ المشابهة الذي تقول به العالمية، مبدأ ينفي كل اختلاف وتنوع، ويجعل من الرؤية الغربية للقيمة الأدبية المعيار الذي يُحتكم إليه.

ومن ثم فان الناقد الكولونيالي حسب **جابر عصفور**، هو الناقد الذي يملي مبدأ المشابهة في كل مقاربة يقوم بها على الآداب التي هي على هامش المركز الذي ينتمي إليه، مما يجعل ممارساته النقدية ذات وجهة إيديولوجية، تسعى إلى بسط الهيمنة الثقافية التي هي انعكاس للهيمنة السياسية والاقتصادية. (عصفور، 2010. ص: 417).

وحول العوامل التي أسهمت في تقويض هيمنة نزعة العالمية المرتبطة بنزعه المركزية الأوروبية، فإن **جابر عصفور** يرى أن العامل الأول يتعلق بالبعد التاريخي، الذي يتمثل في وعي التابع بتبعيته، ومحاوله التخلص من قيود الاستعمار عن طريق الثورات التحريرية الوطنية، التي أدت في عقدي الخمسينيات والستينيات إلى انعتاق الشعوب من ربقة الاستعمار، وقد ارتبط هذا الوعي ضمن سياق التمرد العام بالبعد الثقافي الوطني،الذي جاء كردة فعل عكسية على ثقافة المستعمر المتعالية، سعيا منه إلى تحقيق الإبداع الذاتي، بعيدا عن التقليد القائم على مبدأ المشابهة، والذي تشكلت في أطره نزعة العالمية. وقد أسهم هذا السياق كما يرى **جابر عصفور** في بروز أشكال إبداعية جديدة تنأى بنفسها عن التبعية، وتستعين بلغة (الآخر) المستعمر لتقوض هيمنته بلغته، وتؤسس أصالتها الذاتية في حراكها مع كل من يناهض

التبعية. وقد رافق هذه النماذج الإبداعية مساعي نظرية عملت على كشف زيف خطاب المركزية الأوروبية، وما ينطوي عليه من تحيزات العرق والجنس، و مخايلات التفوق، وما يبرر مساعيه السلطوية. (عصفور، 2010. ص: 439).

ويتصور **جابر عصفور**"أن الخطوة الأولى للتحرر من الوعي الزائف الذي يشيعه مفهوم عالمية الأدب، على النحو الذي اعتدنا عليه، هو تفكيك المفهوم بما يكشف عن لوازمه الإيديولوجية، وبما لا ينفصل عن عملية مساءلة جذرية، شاملة، تسعى إلى تقويض المركز الواحد المهيمن، وتسهم في تحرير وعي التابع من عقدتي التبعية و الاتباع معا." (عصفور، 2010. ص: 401).

وفي هذا لجوء واضح من لدن **جابر عصفور** لمفردات خطاب ما بعد الكولونيالية، واستعانة بآلياته، فالتقويض أو التفكيك لازمة من لوازم هذا الخطاب، يسعى من خلاله إلى الكشف عن الرؤى الزائفة التي حاول المركز المهيمن أن يسوقها عن منظوره لعالمية الأدب.

وما يكمل عمل الخطابات النقضية التي قوضت نزعة عالمية الأدب حسب **جابر عصفور**، هو دعمها بخطاب التنوع الخلاق، الذي يعبر عن عالمية مغايرة، تقوم على التعدد والاختلاف، وتثري الساحة العالمية بنماذج لا حد لها من الإبداع، حيث لا موانع ولا قيود على الأعمال الإبداعية المنطلقة من كل بلاد العالم، في حوار بناء بدون تحيز أو تعصب، يكشف عن إمكانات لا حصر لها، يلامس فيها العمق الإنساني، ويعبر فيها عن المشاغل النوعية لكل قطر من الأقطار. (عصفور، 2010. ص: 451).

وما نخلص إليه أن عالمية الأدب، طرحت إشكالا عميقا حول علاقة آداب العالم الثالث والتي من بينها الأدب العربي بآداب العالم الأول، وهذا ما دعا **جابر عصفور** إلى أن يكشف حقيقة هذه العلاقة، مستلهما مقولات خطاب ما بعد الاستعمار، لينقض بها مبدأ المشابهة، و يدعو إلى مبدأ التنوع الخلاق.

– إشكالية اللغة

اللغة هي لسان الشعوب وترجمانها، والمعبرة عن هويتها وثقافتها وحضارتها، فلا غرو أن تأخذ المكانة اللائقة بها بين العناصر المكونة للهوية الوطنية و القومية. واللغة العربية واحدة من هذه اللغات، والتي كانت ولا زالت محل صراع وتجاذب بين أبنائها المنافحين عنها، و خصومها الذين عملوا على تشويهها والتضييق عليها لتوسم بالتخلف والدونية وعدم مسايرة العصر، ومن هنا فلا تزال اللغة العربية تواجه تحديات كثيرة في استيعاب هذا الزخم الهائل من المعارف والمعلومات، نتيجة لتقدم العلوم الحديثة ومخترعاتها، فمع هذه الوفرة الاصطلاحية في العلوم والمعارف " تبدو اللغة العربية كما لو كانت تستجيب إليها استجابة السلب، نتيجة عدم تطور علاقات إنتاج المعرفة وأدواتها في الأقطار الناطقة بها. ولا تزال اللغة العربية أسيرة هذا الوضع الذي تأخذ فيه أكثر مما تعطي، وتنقل أكثر مما تضيف، وتتبع أكثر مما تبتدع، نتيجة عوامل سياسية واقتصادية وثقافية لابد من مواجهتها، والتصدي لها بالتحليل والنقد." (عصفور، 2008. ص: 242).

فمرد هذه الوضعية التي تعيشها اللغة العربية هي السياسات الاستعمارية والامبريالية، التي عملت على تهميشها، والتمكين للغاتها لأن تسود وتهيمن على باقي اللغات، وتحكم بذلك سيطرتها على الشعوب. الأمر الذي تطلب وجود خطابا نقضيا يدحض مقولاتها، ويكشف زيفها، وهو ما توفر عليه خطاب ما بعد الكولونيالية، الذي كان في طليعته بعضا من أبناء العالم العربي.

ويرى **جابر عصفور** أن المشكلة لا تقتصر على التقدم السريع للعلوم الحديثة والتكنولوجيا فحسب، بل تشمل أيضا ظاهرة العولمة التي تتراكم نتائجها بشكل متسارع في مختلف الميادين والمجالات، لتترك أثارها وتلقي بظلالها على اللغات الوطنية والقومية، لا سيما التي هي على صله مباشرة بالعولمة، وتجتاحها تراكيب ومفردات اللغة السائدة والمهيمنة، التي تعبر عن مفاهيم العولمة وثقافتها، التي تتناقض مع

ثقافة التنوع، و التي تسعى إلى إرساء نموذج ثقافي متسلط، تستبدل فيه التنوع بالوحدة، والنتيجة كما يرى **جابر عصفور** هي سيادة اللغة الصاعدة عولميا على حساب اللغات المحلية، التي لا تكف لغة العولمة على غزوها بالتراكيب والمفردات، مع هشاشة مقاومتها الداخلية، فتصدق عليها بذلك مقوله ابن خلدون أن المغلوب دوما مولع بتقليد الغالب. (عصفور، 2008. ص: 242).

ويضاف هذا الوضع حسب **جابر عصفور** إلى تركة المستعمر، التي تركت انعكاساتها السلبية على لغات العالم الثالث، سواء ما تعلق منها باستبدال لغة المحتل باللغة الأم، أو بظاهرة الازدواج اللغوي، عند الكتاب الذين يكتبون بالعربية والانجليزية أو العربية والفرنسية.. إلى اللغات الأخرى التي تلازمت مع الوجود الاستعماري في الوطن العربي. و يضرب **جابر عصفور** لذلك أمثلة عن كتابات **أهداف سويف** في مصر، و **جبران خليل جبران** في المنفى، و **أمين معلوف** في لبنان، وغيرهم، فهي نماذج جاءت في السياق الذي تولدت عنه كتابات **محمد ديب** و **الطاهر بن جلون** في اللغة الفرنسية، وما ألفه **إدوارد سعيد** والكثير من أمثاله في اللغة الانجليزية، التي باتت تهيمن على المشهد اللغوي العالمي. ولا تزال كما يرى **جابر عصفور** ظاهرة الاستبدال اللغوي المصحوبة بالازدواج اللغوي حقيقة ماثلة إلى الآن بالرغم من زوال الاستعمار القديم، لتستمر بصور جديدة كانت نتيجة لصعود العولمة في المشهد العالمي المعاصر، والتي استبدلت أساليب السيطرة القديمة بأساليب أكثر دهاء ومراوغة. (عصفور، 2008. ص: 243).

ولحسن الحظ كم يقول **جابر عصفور**:" لم تكن ظاهرة الاستبدال اللغوي ظاهرة تبعية ثقافية على طول الخط، فقد خلقت الأوضاع الاستعمارية نقيضها، وتولدت من علاقاتها أشكال مقاومتها. ومن هذه الأشكال ما اتخذ لغة الاستعمار لغة لمقاومة الاستعمار، كما حدث في حالة كتاب الجزائر على سبيل المثال." (عصفور، 2008. ص: 243-244).

وهذا يشبه بحسب **جابر عصفور** مع بعض الاحتراز ما حصل مع خطاب ما بعد الكولونيالية الذي صاغه أبناء العالم الثالث بلغة العالم الأول الذي عاشوا فيه، وذلك سعيا منهم لنقض أسس الخطاب الاستعماري وأساليبه في بسط هيمنته على مصائر الدول المستضعف'، وخير نموذج لذلك هو كتابات إدوارد سعيد الفلسطيني الأصل الأمريكي الجنسية. (عصفور، 2008. ص: 243-244).

يتحدث **جابر عصفور** عن إشكالية الهوية المزدوجة التي غدت مظهرا من مظاهر الإبداع العربي المعاصر، وهي الإشكالية الأحدث لما خلفه الاستعمار الاستيطاني في الأوطان التي تسلط عليها، محاولا فرض لغته، وتهميش اللغة العربية بواسطة وسائل ومغريات متعددة، مما حدى بالعديد من كتاب المستعمرات إلى الكتابة باللغة الوافدة، التي هيمنت على أوطانهم منذ القرن 19. (عصفور، 2010. ص: 138).

فالمستعمر يعتبر اللغة أداة من أدوات الهيمنة، فعن طريقها يستلب الهوية الثقافية للشعوب، وعن طريقها يغرس مفاهيمه وأفكاره، وبواسطتها يسوّق لعقدة الاستعلاء والتفوق، فلا عجب أن يعمل جاهدا لإزاحة اللغات الأصلية للشعوب، لتحل محلها لغته المتعالية والمغالية.

ويضرب **جابر عصفور** مثالا عن الأدباء الجزائريين الذين كتبوا بلغة الاستعمار في مقاومتهم له حيث يقول:" وبرر روائيون جزائريون فرنسيوا اللسان، كتاباتهم الإبداعية المقاومة للاستعمار بأنهم لا يكتبون أدبا فرنسيا، وأن استعمالهم اللغة الفرنسية مجرد وسيله، تشبه استعمال الرسام لألوان صنعت في فرنسا أو أية دولة أجنبية." (عصفور، 2010. ص: 138).

فالكتاب الجزائريون يعتبرون اللغة أداة مثل باقي الأدوات التي لا جنسية لها، وطريقة استعمالها هي التي تحدد فعلها المقاوم من عدمه.

إلا أن **جابر عصفور** يطرح الرأي المناقض لهذه الدعوة والتي تبرر هذا الاستعمال في كونه وسيلة من وسائل الدفاع، مع تناسي أن اللغة وليدة بيئتها والسياق الثقافي والاجتماعي الذي ترعرعت فيه، فهي محملة سلفا بالكثير من الإيحاءات ذات البعد السياسي والاجتماعي والثقافي والحضاري والإديولوجي، التي لا يمكن فصلها عنه. (عصفور، 2010. ص: 139).

إلا أنه يعود ويطرح أراء مخالفة للسابق، وكأنه لم يقتنع بوجهة النظر تلك فيقول عن هذه الأراء أنها ترى "أن الكاتب في النهاية، هو نتاج واقعه ونتاج الشروط التاريخية التي تشكل فيها وعيه، وإغفال ذلك هو إغفال لحقيقة موضوعية، لا سبيل إلى إنكارها. هي أن كتابا مثل **محمد ديب**، و **مولود فرعون**، و **كاتب ياسين**، و **مالك حداد**، و **أسيا جبار**، و **مولود معمري**، والجيل اللاحق عليهم الذي يمثله **إدريس شرايبي**، في الجزائر، أساسا نشأوا في سياق استعماري فرنسي، معاد للغة العربية التي منع تدريسها وحاربها، مقابل تدريس اللغة الفرنسية التي ظلت لغة التعليم طوال الحقبة الاستعمارية الفرنسية. وكانت النتيجة كتابا يكتبون بالفرنسية حقا، لكن بما يعبر عن تطلعات وطنهم للتحرر الذي أسهمت فيه كتاباتهم، سواء في تأثيرها على القارئ الفرنسي أو القارئ العربي على امتداد العالم العربي كله." (عصفور، 2010. ص: 140).

ومما سبق نخلص إلى أن إشكالية اللغة العربية، تظل قائمه ما لم تكن لأبنائها مساهمتهم الفعالة في التقدم العلمي والمعرفي، وما لم يدلوا بدلوهم في المعترك الثقافي العالمي، خاصة وان لغتهم لغة ثرية وولادة، باستطاعتها مضارعة لغات العالم المتقدم لتنال مكانتها التي تستحق. مستعينين بما رفدتهم به النظريات النقضية الحديثة، كما هو الشأن في نظرية ما بعد الكولونيالية التي كشفت زيف دعاوي الاستعمار الثقافية واللغوية، ومحاولته طمس عناصر هوية الشعوب التي وقعت تحت نير سطوته.

6. خاتمة

وفي الختام نخلص إلى أن:

– خطاب ما بعد الكولونيالية خطاب نقضي للمقولات الاستعمارية والإمبريالية، يكشف زيف أفكارها، ويدحض طروحاتها، ويفضح تحيزاتها.

– خطاب كان رواده من أبناء العالم الثالث الذين عاشوا في العالم الأول ودرسوا ودرَّسوا في جامعاته، فقوضوا خطاب الهيمنة الغربية من داخله وبلغته.

– خطاب تلقته الساحة النقدية العربية بكثير من الترحاب، لأنه خطاب يلامس مشاغلها وهمومها، بحكم أنها بلدان عانت من الاستعمار ولا زالت تعاني من صوره وطرقه الجديدة، إلا أن حضوره في الساحة العربية لا يزال دون المأمول.

– خطاب تلقاه **جابر عصفور** بكثير من الحفاوة، فعمد إلى التعريف بأصوله ومفاهيمه ورواده، وطفق يقارب قضاياه، باسطا القول فيها، مع خصوصية في الطرح. كقضية عالمية الأدب، ودحضه لمبدأ التشابه التي تقول به. ومن ثم الدعوة إلى التنوع الخلاق لآداب العالم. وقضية إشكالية اللغة العربية، التي لا تزال قائمه بحكم الإرث الاستعماري، وهيمنة لغات العالم الأول على بقية اللغات، ولا سبيل إلى خلاص اللغة العربية من هذا الوضع، إلا بترقيتها والنهوض بها ومجابهه كل التحديات.

–خطاب حاول **جابر عصفور** أن يعمق من خلاله فهمنا لذواتنا وعلاقتنا بالآخر، وأن يفكك التراتبية القائلة بأن هناك مركز يمثله الغرب، و هوامش تمثلها بلدان العالم الثالث.

قائمة المراجع:

- سعيد إدوارد:

* 2006، الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق. تر: محمد عناني، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع، ط1.

* 2008، السلطة والسياسة والثقافة: حوارات مع إدوارد سعيد، تق: غاوري فسواناثان، تر: نائلة قلقيلي حجازي، بيروت، لبنان، دار الآداب، ط1.

- آنيا لومبا، 2007، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، تر: محمد عبد الغني غنوم، اللاذقية، سوريا، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1.

- جابر عصفور:

* 1997، آفاق العصر. دمشق، سوريا، دار المدى للثقافة والنشر، ط1.

* 2014، تحديات الناقد المعاصر، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر، ط1.

* 2008، نحو ثقافة مغايرة، الدار المصرية اللبنانية، ط1.

* 2010، الهوية الثقافية والنقد الأدبي، القاهرة، مصر، دار الشروق، ط1.

- دوغلاس روبنسون، 2005، الترجمة والإمبراطورية: نظريات الترجمة ما بعد الكولونيالية، تر: ثائر ديب، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ط1.

- رامي أبو شهاب، 2013، الرسيس والمخاتلة: خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد العربي المعاصر النظرية والتطبيق، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات النشر، ط1.

- الرويلي ميجان والبازعي سعد، 2002، دليل الناقد الأدبي إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا، الدار البيضاء، المغرب، المركز الثقافي العربي،ط1.

- عبد الله إبراهيم، 2005/08/11، هل يستطيع التابع أن يتكلم. صحيفة الراية القطرية. / https://www.raya.com